الكتاب الثالث عشر

ابن باديس الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس

تأليف أ.د. عمارالطالبي
تحليل وعرض أ.د. سليمان الخطيب

الميلاد والنشأة:

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن المكي بن محمد كحول بن الحاج علي النوري بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن بركات بن عبد الرحمان بن باديس الصنهاجي. ولد بمدينة قسنطينة يوم الأربعاء ١١ ربيع الثاني ١٣٠٧ هـ الموافق لـ ٤ من ديسمبر ١٨٨٩ م.

كان عبد الحميد الابن الأكبر لوالديه، فأمه هي: السيدة زهيرة بنت محمد بن عبد الجليل بن جلول من أسرة مشهورة بقسنطينة لمدة أربعة قرون على الأقل، وعائلة «ابن جلول من قبيلة «بني معاف» المشهورة في جبال الأوراس، انتقل أحد أفرادها إلى قسنطينة في عهد الأتراك العثمانيين وهناك تزوج أميرة تركية هي جدة الأسرة (ابن جلول) ولنسبها العريق تزوجها والده محمد بن مصطفى بن باديس (متوفى١٩٥١م) الذي شغل منصب مندوب مالي وعضو في المجلس الأعلى وباش آغا شرفيًا، ومستشار بلدي بمدينة قسنطينة ووشحت فرنسا صدره، وقد احتل مكانة مرموقة بين جماعة الأشراف وكان من ذوي الفضل والخلق الحميد ومن حفظة القرآن الكريم، ويعود إليه الفضل في إنقاذ سكان منطقة واد الزناتي من الإبادة الجماعية سنة ١٩٤٥م على إثر حوادث ٨ مايو المشهورة، وقد اشتغل بالإضافة إلى ذلك بالفلاحة والتجارة، وأثرى فيهما.

أما إخوته الستة: الزبير المدعو المولود، العربي، سليم، عبد المليك، محمود وعبد

الحق، والأختين نفيسة والبتول، فقد كانوا جميعاً يحسنون اللغة الفرنسية باستثناء الأختين، وكان أخوه الزبير محاميًا وناشرًا صحفيًا في صحيفة «صدى الأهالي» Indigéne L'Echo ما بين ١٩٣٣ - ١٩٣٤ م. كما تتلمذ الأستاذ عبد الحق على يد أخيه الشيخ عبد الحميد بالجامع الأخضر وحصل على الشهادة الأهلية في شهر جوان سنة ١٩٤٠ م على يد الشيخ مبارك الميلي بعد وفاة الشيخ ابن باديس بحوالي شهرين.

ومن أسلاف عبد الحميد المتأخرين جده لأبيه: الشيخ «المكي بن باديس» الذي كان قاضيًا مشهورًا بمدينة قسنطينة وعضوًا في المجلس العام وفي اللجنة البلدية، وقد احتل مقامًا محترمًا لدى السكان بعد المساعدات المالية التي قدمها لهم خاصة أثناء المجاعة التي حلت بالبلاد فيما بين ١٨٦٢ - ١٨٦٨ م ودُعي إلى الاستشارة في الجزائر وباريس.

أما من قبلهم من الأسلاف الذين تنتمي إليهم الأسرة الباديسية فكان منهم العلماء والأمراء والسلاطين، ويكفي أن نشير إلى أنهم ينتمون إلى أسرة عريقة في النسب، وابن باديس ينتمي إلى بيت عريق في العلم والسؤدد ينتهي نسبه في سلسلة كعمود الصبح إلى بني باديس الذين جدهم الأعلى هو مناد بن مكنس الذي ظهرت علامات شرفه وسيطرته في وسط قبيلته في حدود القرن الرابع الهجري، وأصل هذه القبيلة كما يقول المستشرقون من ملكانة أو تلكانة وهي فرع من أمجاد القبيلة الصنهاجية العظيمة «البربرية» المشهورة في الجزائر والمغرب الإسلامي. ومن رجالات هذه الأسرة المشهورين في التاريخ الذين كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يفتخر بهم كثيرا «المعز لدين الله بن باديس» (حكم: ٤٠٦-٤٥٤ هـ/ ١٠١٦-١٠٦٢م) الذي قاوم البدعة ودحرها، ونصر السنة وأظهرها، وأعلن مذهب أهل السنة والجماعة مذهبًا للدولة، مؤسس الدولة الصنهاجية وابن الأمير «باديس بن منصور» والى إفريقيا والمغرب الأوسط (حكم: ٣٧٣-٣٨٦ هـ/ ٩٨٤-٩٩٦ م)

سليل الأمير «بلكين بن زيري بن مناد المُكَنَّى بأبي الفتوح والملقب سيف العزيز بالله الذي تولى الإمارة (٣٦١-٣٧٣ هـ/ ٩٧١-٩٨٤ م) إبان حكم الفاطميين.

وفي العهد العثماني برزت عدة شخصيات من بينها قاضي قسنطينة الشهير أبو العباس حميدة بن باديس (توفى سنة ٩٦٩ هـ/ ١٥٦١ م) قال عنه شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون: «هو من بيتات قسنطينة وأشرافها وممن له الرِّيَاسة والقضاء والإمامة بجامع قصبتها، وخَلَفُ سلف صالحين علماء حازوا قصب السبق في الدراية والمعرفة والولاية، وناهيك بهم من دار صلاح وعلم وعمل». وأبو زكريا يحيى بن باديس بن الفقيه القاضي أو العباس «كان حييًا ذا خلق حسن، كثير التواضع، سالم الصدر من نفاق أهل عصره، كثير القراءة لدلائل الخيرات ذا تلاوة لكتاب الله».

وأبو الحسن علي بن باديس الذي اشتهر في مجال الأدب الصوفي بقسنطينة إبان القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي.

والشيخ المفتي بركات بن باديس دفين مسجد سيدي قموش بقسنطينة في الفترة نفسها. والشيخ أحمد بن باديس الذي كان إمامًا بقسنطينة أيام «الشيخ عبد الكريم الفكون» خلال القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي.

من هذه الأسرة العريقة انحدر عبد الحميد بن باديس، وكان والده بارًا به يحبه حبًا جمًا ويعطف عليه ويتوسم فيه النباهة وهو الذي سهر على تربيته وتوجيهه التوجيه الذي يتلاءم مع فطرته ومع تطلعات العائلة، كما كان الابن من جهته يجل أباه ويقدره ويبره. والحق أن «عبد الحميد» يعترف هو نفسه في آخر حياته بفضل والده عليه منذ أن بصر النور وذلك في حفل ختم تفسير القرآن سنة١٩٣٨م، أمام حشد كبير من المدعوين ثم نشر في مجلة «الشهاب»، فيقول: «إن الفضل يرجع أولًا إلى والدي الذي ربّاني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة

أتبعها ومشربًا أرده، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وحماني من المكاره صغيرًا وكبيرًا، وكفاني كلف الحياة... فلأشكرنه بلسانى ولسانكم ما وسعني الشكر. ولأكلُ ما عجزت عنه من ذلك للهَّ الذي لا يضيع أجر المحسنين».

المجتمع الجزائري في عصر ابن باديس:

إن البربر شعوب متعددة القبائل، تنتهي في رأي النسابة إلى جذرين أصليين: (البرانس) و(البتر)، وينتهي البرانس والبتر معًا إلى (مازيغ ابن كنعان، من نسل حام بن نوح عليه السلام، ويذكر ابن خلدون أنهم -البربر- من بني برّ بن قيس بن عيلان، وهي قبيلة مضرية، فهم إذن ساميون عرب، وكان دينهم دين المجوسية.

ومع وصول قوافل العرب الفاتحين في القرن الأول الهجري، بدأ المغاربة يدخلون في دين الله أفواجًا، وكان لهؤلاء الفاتحين الأوائل، أمثال عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار، دور عظيم في نشر الإسلام في تلك الربوع، (كما ترك موسى بن نصير سبعة عشر فقيهًا بالمغرب، وأرسل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعثة إلى المغرب تضم عشرة من فقهاء التابعين).

وقد ثبت الأمازيغ على عقيدة الإسلام بعد فترة قصيرة من الزمن، فما كاد ينتهي القرن الأول إلا وهم ثابتون على عقيدة الإسلام.

وما الجهود التي قدمها (البربر) في فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد البربري، إلا دليل على وجود مد إسلامي قوي بينهم. وامتزج العرب والبربر مع مرّ القرون، وتكوّن منهم جنس، أُمُّهُ الجزائر وأَبُوهُ الإسلام، كما يحلو للإمام ابن باديس أن يصفهم، إذ يقول: (إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ، وحّد بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنًا، ثم دأبت تلك القرون تمزج بينهم في الشدة والرخاء، حتى كوّنت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرًا مسلمًا جزائريًا، أمّه الجزائر وأبوه الإسلام).

وقد أقبل البربر على دين الله، وتشرّبوا وأُشربوا حُبه، وتثقفوا بثقافته، وتحصنوا

بعقيدته، فأصبحوا ركنًا من أركانه يذودون عنه باللسان والقلم والسيف.

واليوم لا يمكن التمييز بين هاتين الطائفتين أبدًا، فلا طرائق المعيشة ولا اللغة يمكن أن يستخلص منها أساس لمثل هذا التمييز، ناهيك عن عقيدة التوحيد التي ألّفت بين قلوبهم.

ولقد اتضحت آيات اتحادهم جلية، وبرهن الشعب الجزائري في أحلك الأوقات أنه شعب واحد، لا يرضى بغير الإسلام دينًا، فهبّ منذ وطئت أقدام المستعمر بلاده يقاوم ويحارب جحافل الغزاة.

أثار الإمام عبد الحميد بن باديس:

ترك الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس آثارًا كثيرة كانت حصيلة نضاله الذي دام أزيد من عشرين عامًا، والملاحظ أن الشيخ ابن باديس لم يركّز كثيرًا على الكتابة والتأليف، فقد كان يرى حين تصدّر للتفسير مثلًا: (أن في تفسيره بالكتابة مشغلة عن العمل المقدّم، لذلك آثر البدء بتفسيره درسًا تسمعه الجماهير)، وكان – رحمه الله– مشغولًا مع ذلك بإنقاذ جيل وُلد وترعرع في أحضان الاستعمار، وتربية أمة حوربت في دينها ومقدساتها، ومكافحة أمية طغت على أفراد الأمة. وكان الإمام ابن باديس يؤمن بأن بناء الإنسان أصعب، ولكنه أجدى للأمة، من تأليف الكتب، وأن غرس الفكرة البنّاءة في صدر الإنسان، إيقاد لشمعة تنير الدجى للسالكين فمعظم أعماله لم يخلفها في شكل مصنفات، فلقد تركها متناثرة في مختلف الجرائد والمجلات إلاّ القليل منها، ولله الحمد أن سخر له أحبابًا جمعوا تلك الأعمال ونشرت، هي:

١ – **رسالة جواب عن سوء مقال:** هي عبارة عن رسالة نافعة صغيرة في الذب عن النبي ﷺ لا تزيد عن سبع عشرة صفحة، ألفها ردّا على أحمد بن عليوة المستغانمي صاحب الطريقة العليوية، الذي تَجَرَّأَ على مقام النبوة الكريم فَفَاهَ بِجُمَلٍ

سَخِيفَةِ الْمَعْنَى في أبيات باللّسان العَامِّيِّ الوارد في السؤال التي نشرها في ديوانه المطبوع في تونس عام ١٩٢٠ م، المشحون بالدعوة إلى مبدأ الحلول وحدة الوجود. تحتوي على مقدّمة وأربعة فصول وخاتمة، حَشَدَ فيها ابن باديس خير الأدلة، من الكتاب الكريم والسنّة الصحيحة وآثار السلف، بأسلوب علمي متين ولسان عربي مبين. فرغ من تحريرها صبيحة الثلاثاء ٢٧ ذي الحجة عام ١٣٤٠هـ الموافق لعام١٩٢٢ م، طبعها ونشرها في نفس العام، وأرسل بها إلى كبار مشايخه بتونس وإلى أفاضل العلماء والمفتين بالجزائر والمغرب ومصر، فاطّلعوا عليها وقرّظوها وأرسلوا إليه بتقريظهم تباعًا، نشرها في الجزء الأخير من الرسالة بأسماء العلماء المقرظين مع بيان وظائفهم وبلدانهم. واعتبروها من العمل المبرور والصنيع المشكور، وضلّلوا من فاه بتلك الأبيات، لما حوته من ترّهات»!

٢ - **العواصم من القواصم**: حقق الإمام ابن باديس كتاب «العواصم من القواصم» للقاضي أبى بكر بن العربي إمام من أئمة المسلمين، ويعتبره فقهاء مذهب الإمام مالك أحد أئمتهم المقتدى بأحكامهم، وهو من شيوخ القاضي عياض مؤلف كتاب «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى»، ومن شيوخ ابن رشد العالم الفقيه والد أبي الوليد الفيلسوف.. وكتابه (العواصم من القواصم) من خيرة كتبه، ألفه سنة ٥٣٦ وهو في دور النضوج الكامل، بعد أن امتلأت الأمصار بمؤلفاته وبتلاميذه الذين صاروا في عصرهم أئمة يهتدى بهم. وهذا الكتاب في جزأين متوسطي الحجم، قدمهما الإمام ابن باديس وطبعهما سنة ١٣٤٧ هـ/ ١٩٢٨م بالمطبعة الجزائرية الإسلامية في مدينة قسنطينة.

٣ - **تفسير ابن باديس**: كتاب جامع لدروس تفسير القرآن الكريم التي ظل يلقيها على طلبته والعامة لمدة خمسة وعشرين عامًا، بدأه في ربيع سنة١٣٣٢هـ- ١٩١٤م، وختمه في ١٣ من ربيع الثاني ١٣٥٧هـ الموافق لـ ١٢ جوان ١٩٣٨م، وقد

بين فيه الإمام ابن باديس مختلف نواحي القيم الإسلامية الواجب إتّباعها، مركزًا على مقاصد القرآن الكريم التي يمكن تلخيصها فيما يلي: أولًا: الناحية العقيدية التي تتناول الجانب الإيماني بالله والرسل والملائكة واليوم الآخر. ثانيًا: الناحية الأخلاقية التي يدعو القرآن إلى التلبّس بها لتهذيب النفوس وتزكيتها. ثالثًا: الناحية الحياتية العملية، وهي التي تتناول الأحكام التي تنظم علاقة الفرد بربّه وبنفسه وبغيره من الأفراد وبمجتمعه ككلّ. ولكنه لم يكتب منه إلا قليلًا، فلم يكن الشيخ يكتب من التفسير ما يلقيه، ولم تكن آلات التسجيل شائعة الاستعمال، متيسّرة الوجود، ولم يتح له من يسجل ما يقول، ولكن الله أبى أن يضيّع فضله وعمله، فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس كان ينشرها فواتح لأعداد مجلة «الشهاب»، ويسمّيها (مجالس التذكير)، وقد تسنى للأستاذين: محمد الصالح وتوفيق محمد نشره نقلًا عن (مجالس التذكير) الذي طبعه أحمد بوشمال بعد وفاة الإمام ابن باديس بثماني سنوات ونشره سنة ١٩٤٨ م.

٤- **مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**: طبعته وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، سنة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م. وعلى غرار ما نشر له في تفسيره، تضمن الكتاب تمهيدًا وتصديرًا للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، قدم بها العدد الخاص بختم تفسير القرآن من مجلة «الشهاب» سنة ١٩٣٨ م، ومقالات افتتاحية كتبها الإمام ابن باديس بمجلة الشهاب حول الذكر والتذكير وأفضل الأذكار قدمها بين يدي دروس تفسيره التي سماها مجالس التذكير.

٥ - **مجالس التذكير من حديث البشير النذير**: طبعته وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، سنة ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م. تضمن الأحاديث النبوية المشروحة وغيرها من الآثار المتعلقة بالسنة وصاحبها ﷺ، التي نشرت في مجلة «الشهاب»، وفي غيرها من جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.. بالإضافة إلى درس ختم موطأ الإمام

مالك ومناسبة الاحتفال بختم شرحه الذي أقيم أواسط ربيع الثاني عام ١٣٥٨هـ (جوان ١٩٣٩م) أي بعد عام على ختمه لتفسير القرآن العظيم،.

٦ - **العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية**: هي عبارة عن عدة دروس دينية، مما كان يلقيه الإمام ابن باديس على تلامذته في الجامع الأخضر بمدينة قسنطينة في أصول العقائد الإسلامية وأدلتها من القرآن والسنة النبوية على الطريقة السلفية، وقد جمعها وعلق عليها تلميذه البار الأستاذ محمد الصالح رمضان الذي تلقاها عن الإمام ابن باديس إملاءً مباشرة في حلق دراسية مسجدية في الفترة ما بين ١٦ رجب ١٣٥٣ هـ/ أكتوبر ١٩٣٤ م و٢٥ صفر ١٣٥٤ هـ/ مايو ١٩٣٥ م، بنسبة حصة واحدة في الأسبوع لا تتجاوز الثلاثين دقيقة، ولأهمية تلك الدروس ثم نشرها في كتاب سنة ١٩٦٣ م ثم أعيد طبعها مرتين عامي ١٩٦٦ م و١٩٩٠ م، كما نشرها الشيخ محمد الحسن فضلاء سنة ١٩٨٤ م.

٧- **مبادئ الأصول**: هي رسالة في علم الأصول من إملاء الإمام ابن باديس على طلبته، عبارة عن مقدّمة للمصنّفات المفصّلة وإقليد للمطوّلات، يمتاز بأسلوب سهل وبسيط، بعيد عن التعقيد اللفظي، مع رقّة الفهم، ودقّة في العبارة، مخالف للعديد من الرسائل والمختصرات من علم الأصول التي تحاول أن تؤدي معاني كثيرة في عبارة مُقتضبة، الأمر الذي لا يعين على فهمها إلاّ بصعوبة بالغة.

٨ - **رجال السلف ونساؤه**: هي مجموعة من المقالات - ثلاثة عشر (١٣) مقالًا - ترجم فيها الإمام ابن باديس لبعض الشخصيات البارزة من الصحابة والصحابيات رضوان الله عليهم، وما لهم من صفات اكتسبوها من الإسلام، وما كان من أعمالهم في سبيله، نشر تلك التراجم في مجلة (الشهاب)، جمعها ونشرها الأستاذان محمد الصالح رمضان وتوفيق محمد شاهين سنة ١٩٦٦ م.

٩ - **تراجم أعلام**: رسالة تشمل عشرين (٢٠) مقالا، تتناول في مجموعها

بعض الشخصيات الإصلاحية ممن عاصروا الإمام ابن باديس أو سبقوه بقليل منهم «عبد العزيز جاويش»، «رمضان حمود»، «عمر المختار»، «الشيخ عبد العزيز الثعالبي»، والشاعران «شوقي» و«حافظ».

تفكير الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس:

ودون الخوض في حقيقة تفكير ابن باديس: أهو تفكير ذو طابع ديني أم هو تفكير سياسي، أم تفكير فلسفي....؟

أيا كانت الإجابة فالمعروف عن ابن باديس أنه عالم ديني، ومصلح اجتماعي ومفكر سياسي، وأستاذ مرب، وكاتب مجيد، وصحافي قدير.

ومن الكتاب من يعتبره إلى جانب ذلك فيلسوفا، ومنهم من لا يريد أن ينسبه إلى الفلسفة باعتبار الفلسفة بناءً فكريًا نظريًا، نتائجه ظنية احتمالية، ولأن البحث الفلسفي ينطلق من تصورات مجردة، ويقوم على الجدل العقلي الذي ليست له غاية نفعية يستفيد منها عموم الناس، وفلسفة بهذا المفهوم لا تنسجم مع طبيعة ابن باديس، ولا مع تفكيره العملي.

ولهذا لا نستطيع أن نصفه ضمن قائمة الفلاسفة الذين كرسوا حياتهم وأبحاثهم للخوض في المسائل الفلسفية التجريدية، التي لا تنزل إلى واقع الناس، ولا تعالج مشكلاتهم ولا نستطيع كذلك أن نجرده من التفكير الفلسفي الذي يتناسب مع روحه الدينية واتجاهه الوطني، وبرنامجه الإصلاحي، وانشغالاته السياسية والاجتماعية.

- الجانب الفلسفي في تفكير ابن باديس.
- السمات المميزة لتفكير ابن باديس.
- ابن باديس الفقيه المجتهد.

- التفكير التربوي للإمام عبد الحميد بن باديس.
- نظرة ابن باديس إلى الإنسان.
- المعرفة والعلم في نظر ابن باديس.
- ابن باديس وتعليم المرأة.
- العمل الجماعي في نظر ابن باديس.

الجانب الفلسفي في تفكير ابن باديس:

ومن هنا يمكننا القول إن الفلسفة التي نستطيع أن ننسبها إلى ابن باديس ليست الفلسفة التي يجنح فيها العقل إلى التصورات المجردة، والتأملات الحالمة، والمسائل النظرية البحتة، التي لا تتصل بواقع مجتمعه ولا تسهم في حل مشكلات واقع هذا المجتمع، وإنما الفلسفة التي نستطيع أن ننسبها إليه، ونجعلها جانبًا من تفكيره هي الفلسفة العملية، التي يستطيع أن يترجمها الإنسان إلى واقع الحياة، ويعيش حقائقه؛ الفلسفة التي يتطابق فيها القول مع الفعل، والاعتقاد مع السلوك، ويتكامل فيها التصور النظري مع الممارسات العملية، الفلسفة التي تبحث في الحقائق التي يعيشها الإنسان، ويكون منطلقها واقع المجتمع، وأساسها روح الإسلام وأصوله، وغايتها تحرير المجتمع من كل أشكال الظلم والتخلف والتسيب، والتي تستهدف في مناهجها إعادة تشكيل الشخصية الجزائرية، التي أصابها الوهم، نتيجة ظروف الانحطاط، وسياسة الاستعمار.

إن الفلسفة التي تطبع تفكير ابن باديس فلسفة واقعية تنبع من تفكير إنسان واع، مرتبط بوطنه، وملتزم بحقائق دينه، مستوعب أسباب معاناة بلاده، متطلع إلى معايشة عصره، فلسفة تلح على تمتين الصلة بين الفكر والعمل، والمزاوجة بين النظرية والتطبيق، هده بعض سمات التفكير الباديسي، سمات تمتزج فيها الجوانب الدينية والسياسية، والأخلاقية والعلمية والوجدانية والعقلية، ولكن السمة البارزة

في هذا التفكير هي السمة الدينية المطعمة بالنزعة العقلية، باعتبار العقل «ميزة الإنسان وأداة عمله» كما يقول ابن باديس، والعقل من ناحية أخرى هو القوى الروحية التي بها يكون التفكير والنظر.

وتجدر الإشارة إلى الطابع المميز لتفكير ابن باديس تجسده آراؤه وأفكاره ومواقفه، التي صار عليها في حياته، وبنى على أساسها مشاريعه الإصلاحية، وشكل منها منهجًا اعتمده في معالجة أوضاع مجتمعه وبرنامجه التعليمي، وهي كما نرى فلسفة عملية أكثر منها نظرية، تعالج الأمور التي استحوذت على تفكير الإنسان بمنطق الواقعية، لأنها فلسفة تستمد روحها من روح الإسلام وأصوله، وتجعل هدفها تجسيد هذه الأصول وتقريبها من الناس، والاستفادة منها، وتصحيح المفاهيم، والاعتقادات، وتهذيب السلوك الفردي والاجتماعي، ودفع الناس إلى الإسهام في تغيير واقعهم، وتحسين ظروفهم، ليكونوا أهلا للاستخلاف الذي استخلفه الله في أرضه.

السمات المميزة لتفكير ابن باديس:

إن المتتبع لأراء ابن باديس في الدين والسياسة والأخلاق والعلم والتربية، وفي القضايا الوطنية والثقافية التي ترك لنا فيها آثارًا مكتوبة يجد أنها آراء نابعة من فكر إنسان ملتزم بحقائق دينه وتاريخ أمته، ونهج سلفه، ومتفاعل مع واقع مجتمعه وحقائق عصره، ومتفتح على أفكار غيره، حريص على بعث يقظة فكرية وسياسية في نفوس الأجيال، تعيد للأمة عزتها وللعروبة والإسلام مجدهما، وللوطن كرامته وحريته، وتبعث في الشباب روح العزم على التغيير وإرادة البناء لتخليص الوطن من المحن التي أصابته.

إن القراءة المتمعنة في هذه الآراء تقودنا إلى استخلاص السمات المميزة للتفكير الباديسي، تلك السمات التي تبين لنا أن تفكير ابن باديس تفكير عقلاني متفتح من

جهة، وسلفي ملتزم من جهة ثانية، والسلفية عنده لا تعني تقليدًا أعمى للأوائل ولا تقديسًا للماضي من حيث هو ماض، وإنما تعني إتباعا للنهج الذي رسمه الإسلام، وسار عليه رسول الإسلام ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم النهج الذي اتبعه الأئمة المجتهدون الذين فهموا حقائق الإسلام، واستلهموها في اجتهاداتهم وأحكامهم، وفي معالجة الأمور التي طرأت على مجتمعاتهم.

السلفية عنده لا ترفض معايشة العصر، والتفتح على علومه، والاستفادة من كل ما يُمكِّن المجتمع من مسايرة الركب الحضاري كما لا ترفض الرجوع إلى العقل في معالجة الأمور دون أن يكون في ذلك ما يمس جوهر العقيدة ويتضارب مع حقائق الإسلام، وفي هذا الصدد يذكر ابن باديس أنه كان في فترة الدراسة متبرمًا من أساليب المفسرين وإدخالهم التأويلات الجدلية في كلام الله... ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهنه بقية غشاوة من التقاليد...ثم يقول: وذكرت يومًا للشيخ النخلي ما أجده في نفسي من التبرم والقلق، فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأحوال المختلفة، وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح. يقول ابن باديس بعد ذلك: فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقًا واسعة لا عهد له بها، هكذا زالت الحيرة التي كان فيها ابن باديس بعد أن اهتدى إلى طريق اليقين الذي فتح عينيه على الطريق الذي ينبغي أن يتبعه المفكر، وهو أن يعتمد عقله دليله في الاهتداء إلى التمييز بين الآراء الصحيحة والآراء السقيمة.

هذا التزاوج في تفكير ابن باديس بين التفتح العقلي على الحياة المعاصرة والالتزام بالأصول الدينية الصحيحة هو تزاوج مستمد من تفكير إسلامي كما أسلفنا. لأن التفكير الإسلامي الأصيل يقوم على التوازن والتكامل بين الجوانب العقلية التي وظيفتها التدبر والتأمل والاستدلال، وبين الجوانب الروحية الوجدانية

التي وظيفتها الإيمان والامتثال والالتزام، إذ البحث العقلي واجب الإنسان المسلم، وقد شرح ابن رشد هذا التواؤم بين العقل والدين، أو بين الحكمة والشريعة في كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال» وأوضح أن ما يؤدي إليه البحث العقلي لا يخالف ما قرره الشرع يقول: «إذا كانت الشريعة حقًا، وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له» وكل ما في الأمر أنه يجب على المفكر الذي يتصدى إلى البحث في العقائد وأمور الدين... أن يستوفي شروط البحث من ذكاء الفطرة، والعدالة الشرعية... وأن يكون فيما يتعلق بظاهرة الدين الذي يحتاج إلى تأويل من أهل التأويل وصياغة البرهان.

وفي هذا الصدد يقول ابن تيمية: «المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح».

هذا هو النهج الذي استلهمه ابن باديس في بناء اتجاهه الفلسفي، ومن هنا نتبين أن تفكير ابن باديس كما يصفه محمد الميلي كان تفكيرًا أصيلًا، يجمع إلى العقلانية المتحررة الإيمان بالقيم الإسلامية.

وقد يبدو هذا الاتجاه غريبًا بالنظر إلى ثقافته التقليدية وقراءاته الدينية، والبيئة العائلية المحافظة التي نشأ فيها، لولا أن هناك عوامل أسهمت في بروز هذا الاتجاه، وقد أشار الأستاذ محمد الميلي إلى بعضها وهي كما يلي:

١- معايشة ابن باديس الأوساط المحتكة بالتيار الثقافي الغربي، مما جعله يلاحظ عن كثب العوامل التي كانت سببًا في تفوق الغرب وتقدمه، ولعل هذا هو الذي جعله لا يتردد في الدعوة إلى الأخذ بأسباب التقدم وطلب المعرفة بأية لغة، ومن أي مصدر.

٢- التأثير المزدوج في ثقافته والذي يرجع إلى دراسته في تونس: تأثير التيار العصري التاريخي ممثلًا في (الشيخ البشير صفر)، أحد مشايخه، وتأثير التيار الإسلامي التقليدي الإصلاحي ممثلًا في (الشيخ محمد النخلي)، الذي كان له الفضل

في توجيه عقله فيما يقرأ، وزوال الغشاوة التي كانت على ذهنه من التقليد.

٣- الآثار التي تركتها أفكار الأفغاني وشكيب أرسلان والكواكبي، وغيرهم ممن كان لهم فضل في بعث اليقظة الفكرية في الشرق العربي، التي انتقلت آثارها بشكل غير مباشر إلى المغرب العربي، وأثرت في علمائه، وفي اتجاهات الإصلاح عندنا.

ابن باديس الفقيه المجتهد:

مما عرف به ابن باديس أنه فقيه أصولي مجتهد، جامع لشروط الإمامة والفتوى، عالم بمذاهب أهل السنة والجماعة، عارف بمقتضيات الحياة، متطلع في المذهب المالكي، وفي معرفة أحوال مجتمعه، إذ لم يكن فقيهًا تقليديًا يكتفي بالتعامل مع ظاهر النصوص، إنما كان يعمل فكره ويجتهد في تحليل القضايا التي تعرض لحياة الناس وفق الظروف التي يعيشونها.

وله عدة آراء اجتهادية في الدين تتمثل في:

أولًا: رأيه في تجنس المسلم بالجنسية الفرنسية: تنص الفتوى بتكفير كل مسلم جزائري أو تونسي أو مغربي يتنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية باختياره، ويتجنس بالجنسية الفرنسية للتمتع بالحقوق المدنية، قال ابن باديس: «ما أكثر ما سُئلنا عن هذه المسألة، وطلب منا الجواب في الصحف، ومن السائلين رئيس المتجنسين الأستاذ التركي (الذي لم يجد من يُفْتِه في تونس) وكاتبنا برسالتين، فأدينا الواجب بهذه الفتوى:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله: التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة الإسلامية ومن رفض حكمًا واحدًا من أحكام الإسلام عُدَّ مرتدًا عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتد بالإجماع، والمتجنس - بحكم القانون الفرنسي - يجري تجنسه على نسله، فيكون قد جنى عليه

بإخراجه من حظيرة الإسلام، وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه، وإثمها متجدّد عليه ما بقي له نسل في الدنيا، خارجًا عن شريعة الإسلام بسبب جنايته... والعلم عند الله...» خادم العلم وأهله «عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء» - البصائر عدد ٩٥ بتاريخ ١٤/ ١/ ١٩٣٨، جمادى الثاني ١٣٥٦ هـ.

ثانيًا: رأيه في تزوج المسلم الجزائري بالفرنسية: بالرغم من أن الإسلام يبيح الزواج بالكتابية فقد أفتى ابن باديس بحرمة زواج الجزائري المسلم بالفرنسية، وعلل ذلك بكون النتيجة التي تؤدي إليها هذا الزواج هي الخروج عن حظيرة الإسلام لأن القانون الفرنسي يقضي بأن أبناءه منها يتبعون جنسية أمهم في خروج نسله عن حظيرة الإسلام. فإن كان راضيًا بذلك فهو مرتد عن الإسلام، جان على أبنائه، ظالم لهم، وإن كان غير راض لهم بذلك وإنما غلبته شهوته على الزواج فهو آثم بجنايته عليهم، وظلمه لهم، لا يخلصه من إثمه هذا إلا إنقاذهم مما أوقعهم فيه.. - البصائر عدد ٩٥ بتاريخ ١٤/ ١/ ١٩٣٨، جمادى الثاني ١٣٥٦ هـ.

ثالثًا: رأيه في دفن أبناء المتجنسين في مقابر المسلمين: سأل أحد أهالي (ميشلي) من القبائل الكبرى عن أبناء المتجنسين بالجنسية الفرنسية هل يجوز دفنهم في مقابر المسلمين؟ فكان جواب ابن باديس كما يلي: بعد الحمد لله والصلاة والتسليم على النبي وآله: قال: «فابن المطورني، أي (المتجنس) إذا كان مكلفًا، ولم يُعْلَم منه إنكار ما صنع أبوه والبراءة منه، فهو مثل أبيه لا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، وإن كان صغيرًا فهو مسلم على فطرة الإسلام، يدفن معنا ونصلي عليه» كتبه خادم العلم وأهله: عبد الحميد بن باديس - البصائر عدد ٧٩ بتاريخ ٢٠/ ٨/ ١٩٣٧، جمادى الثاني ١٣٥٦ هـ.

رابعًا: رأيه في جواز مسح المرأة على شعرها عند الاغتسال: أفتى ابن باديس بالاكتفاء بالمسح على رءوسهن في الغسل، كما يكتفي بالمسح على الخفين والجبائر في

الوضوء، تسهيلا عليهن، ودفعًا للكلفة والخسارة، والدين يسر.

خامسا: رأيه في بعض حالات طلاق الثلاث: وله عدة فتاوى حسب الحالات لأنه كان أعلم العلماء لجأ إليه العديد من الناس لحل مشاكلهم في هذا الأمر.

نظرة ابن باديس للإنسان:

الإنسان الذي جعله ابن باديس محور خطته التربوية وغايتها، ليس الإنسان المطلق الذي اهتمت به الفلسفة القديمة، الإنسان المجرد عن الزمان والمكان، الذي لا نستطيع أن نجد نماذج منه في حياتنا، ولا الإنسان الذي اهتمت به بعض التيارات الفكرية الحديثة التي تقول بحريته المطلقة وبأنه سيد نفسه وتنكر وجود قيم ثابتة تحرك سلوك الإنسان، وليس الإنسان الذي طمست حقيقته المذاهب الفلسفية المادية التي تنكر أهمية الجانب الوجداني في الإنسان، والقيم الروحية التي تحركه، إنما الإنسان الذي اهتم به ابن باديس وجعله أساس نشاطه هو الإنسان الذي يعيش في واقعنا، ويتفاعل مع أحداث عصرنا، الإنسان الذي استخلفه الله في هذه الأرض ومكنه من استثمار قدراته، لتحقيق الازدهار العمراني، والتقدم الحضاري، الذي يعود عليه وعلى أمته بالخير والسعادة.

فنظرة ابن باديس إلى الإنسان نظرة واقعية لا تجزئ حقيقة الإنسان، ولا تختصرها في بعد واحد من الأبعاد المكونة لهذه الحقيقة، بل تشمل جميع ما يكون به الإنسان إنسانًا مثل الفكر والروح والدوافع (الغرائز) والاعتقادات التي تحصل عن طريق العلم وإعمال الفكر، وكذلك الأعمال التي هي عنوان معبر عن حقيقة الإنسان، والتي تترجم ما عنده من أفكار وعقائد ومشاعر، والتي بها يتشكل وجوده الإنساني وتتحقق إنسانيته، لأن الإنسان - في نظر ابن باديس - كل متكامل فكرًا وغريزةً وعقيدةً وعملًا، ويوضح هذا المعنى فيقول: «إن الإنسان إنما هو إنسان بفكره وغرائزه وعقائده وأعماله المودعة كلها في جزئة المحسوس الفاني (وهو

الجسد) وفي جزئه المعقول الباقي (وهو الروح) وبهذه الأصول الأربعة ينهض الإنسان أو يسقط».

المعرفة والعلم في نظر ابن باديس:

المعرفة التي اهتم بها ابن باديس ودعا إلى تلقينها للناس باعتبارها مادة التربية وأداة التثقيف والتهذيب هي المعرفة التي ترسخ الإيمان وتعصم الاعتقادات من الانحراف، والأخلاق من الفساد، والفكر من الضلال، وتفيد الإنسان في حياته الدينية والدنيوية.

وقد يتصور البعض أن المعرفة التي انشغل بها ابن باديس واعتبر تعليمها واجبًا دينيًا، وضرورة اجتماعية هي المعرفة المتعلقة بالعلوم الشرعية، وما يخدم هذه العلوم ويعين على فهمها، وما عدا ذلك فلا يندرج ضمن اهتماماته، شأنه في ذلك شأن الفقهاء التقليديين الذين يحصرون المعارف الواجب تعليمها في الفقه والعقائد والأصول، والحقيقة غير ذلك، فهو يعتبر إهمال العلوم المتعلقة بالحياة سببًا من أسباب تأخرنا وانحطاطنا، لذلك كان يعيب على العلماء الذين أهملوا هذه العلوم التي أوصلت أوربا إلى ما هي عليه.

ابن باديس وتعليم المرأة:

الاتجاه الذي كان سائدًا في عصر ابن باديس لم يكن يشجع تعليم البنت ولم يكن يتيح لها فرص التثقيف التي تؤهلها لوظيفتها الاجتماعية التي تنتظرها، بل كثيرًا ما كانت الفرص التعليمية المتاحة خاصة بالبنين، ومقصورة عليهم في أغلب الحالات.

وهذا الأمر كان يقلق ابن باديس، لذلك أبدى اهتمامه بموضوع تعليم المرأة، لأنها شقيقة الرجل وتشكل نصف المجتمع، وهي الركن الركين الذي يقوم عليه بناء الأسرة، فإهمال تربيتها، وتركها جاهلة هو هدم لهذا الركن، وتفكيك لبنية

الأسرة، وإضعاف لقدرتها على الاضطلاع بمسئوليتها التربوية والاجتماعية.

وكان موقف ابن باديس أن وجه جهوده الإصلاحية والتربوية لمواجهة الآراء المتطرفة التي حاولت سلخ المرأة المسلمة من مقوماتها وتجريدها من خصوصياتها.

وهاجم بشدة الآراء الجامدة التي حاولت إبقاء المرأة متاعًا مهملًا،

ونبه العلماء وأولياء أمور البنات إلى أهمية تعليم البنت، ضمن الإطار الحضاري الإسلامي، لأن البنت المتعلمة تستطيع أن تبني أسرة منسجمة ومتماسكة، كما تستطيع أن تطور نفسها، وتحفظ كرامتها، وتضطلع بوظيفتها التربوية داخل الأسرة، وفي المجتمع اضطلاعًا كاملًا.

وقد بين في رده على دعاة تحرير المرأة أن التحرير الحقيقي الذي يجب أن نسعى إليه هو تحريرها من الجهل، فقال: «وإذا أردتم إصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها، وأما حجاب الستر فإنه ما ضرها في زمان تقدمها، فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكانة عالية ما ضرّها في العلم وهنّ متحجبات» الشهاب، ج: ١٠، م ٥ نوفمبر ١٩٢٩.

العمل الجماعي في نظر ابن باديس:

إن ما وصلت إليه أوضاع الأمة الجزائرية من تدهور وتردي في ظل الاستعمار الفرنسي الغاشم، لم يترك للإمام ابن باديس من خيار سوى الانطلاق في دعوته، ولو بصفة فردية. فقد اتخذ من الجامع الأخضر معهدًا لنشاطه العلمي والتعليمي والتربوي، معتقدًا بأن العلم هو وحده الإمام المتبع في الحياة، في الأقوال والأفعال والمعتقدات، ورغم الجهود الفردية المتواصلة التي كان يقوم بها ابن باديس في تلك الفترة، إلا أنه كان يؤمن بوجوب العمل الجماعي، وإنشاء حركة منظمة تتولى انتشال هذه الأمة من وهدة الجهل والتنصير والفرنسة.

وقد انسابت أشعة الفجر الجديد من تلك اللقاءات المباركة، التي جمعته بالأستاذ محمد البشير الإبراهيمي في المدينة المنورة، في موسم الحج سنة ١٩١٣م، حين وضعا البذور الأولى للنهضة، التي ما لبثت أن أيقظت الأصوات بعد سكوتها.. وحرّكت الهمم بعد سكونها، يصف لنا الشيخ الإبراهيمي تلك اللقاءات المباركة التي جمعته بالشيخ ابن باديس، فيقول: (وكانت تلك الأسمار المتواصلة كلها، تدابير للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة، التي كانت كلها صورًا ذهنية تتراءى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة.

وأشهد الله على أن تلك الليالي من عام ١٩١٣ ميلادية، هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلا في عام١٩٣١م). فتطابقت أفكار الرجلين على وجوب إنشاء حركة إصلاحية في الجزائر، فرسما لها منهاجًا بحكمة ومهارة. وعلى الرغم من الحصار الذي فرضه المستعمر على معاهد التعليم الإسلامي والكتاتيب القرآنية، إلا أن هذه الروح الجديدة والنفثات الهادئة، جعلتها تستمر في أداء رسالتها ومواصلة عطائها.

يصف لنا الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله، تلك اليقظة فيقول: «لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس، فكانت ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدّر يتحرك، ويالها من يقظة جميلة مباركة».

ولم تنقطع نداءات ابن باديس لجمع الطاقات وتوحيد الصفوف، وتكاتف الجهود، معتمدًا في ذلك على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ اللذين هما الأساس لكل نهضة تتطلع لها الأمة، وفي هذا يقول: «إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوّة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة، تفكّر وتدبّر، وتتشاور وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرّة، متساندة في العمل

عن فكرة وعزيمة».

ورغم ما للأعمال الفردية من منافع ومزايا، إلا أنه لا ينهض بالأمم والشعوب من العمل إلا ما كان منه منظمًا، تتضافر فيه الجهود وتتآزر. وبعد عشر سنوات من شروعه في التعليم وظهور نتائج ذلك في النشء العلمي الذي كوّنه، حاول ابن باديس أن يعلن الدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح.

ففي سنة ١٩٢٤م، تدارس مع الأستاذ البشير الإبراهيمي فكرة تأسيس جمعية تكون نواة للعمل الجماعي، تحت اسم: (الإخاء العلمي) تجمع شمل العلماء والطلبة، وتوجّه جهودهم، وتقارب بين مناحيهم في التعليم والتفكير، وتكون صلة تعارف بينهم، ومزيلة لأسباب التناكر والجفاء...). ثم حدثت حوادث عطّلت المشروع الذي كان لابد له من زمن أوسع، حتى يتخمّر وتأنس إليه النفوس التي ألفت التفرقة.. بعدها انصرف ابن باديس إلى تأسيس الصحافة الإصلاحية، فكانت (المنتقد) ثم (الشهاب (التي كان لها في سنتها الثانية والثالثة دعوة إلى مثل تلك الجمعية، وكان كُتّاب) الشهاب(إذ ذاك قد كتبوا في ذلك الموضوع، وكانت تلك الأفكار والأقوال تمهيدًا للعمل.

وتمهيدًا لجمع شمل العلماء في الجزائر تحت لواء التنظيم المنشود، بادر ابن باديس إلى تأسيس: جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة.

المرحلة الأولى:

بعد رجوع ابن باديس إلى الجزائر من رحلته العلمية ورحلته إلى الحجاز ركز جهوده كلها على التربية والتعليم، وقد بدأ بداية بسيطة في مسجد «سيدي قموش» وفي «الجامع الكبير» في قسنطينة. كان النهار كله للأطفال والشباب، يعلمهم العربية وأمور دينهم، وفي المساء تفسير القرآن للكهول والشيوخ، وتقاطر عليه الناس يستفيدون من علمه.منعته فرنسا من دروس «الجامع الكبير» فانتقل إلى «الجامع

الأخضر» وقد استعان بوجاهة والده لدى الحكومة فأذنت له بالتدريس، وربما ظنت فرنسا أنه شيخ مثل بقية الشيوخ لا خطر، منه أو أنها سكتت عنه احترامًا لوالده.

كانت هذه السنوات تأسيسًا وإرهاصًا لنشوء جمعية العلماء، وفي هذه الفترة كانت المشاورة مستمرة مع الشيخ الإبراهيمي وكان اللقاء كل أسبوعين. يقول الإبراهيمي: «فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن آثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يخل أبدًا».

بعد أن أحس ابن باديس بصلابة الأرض تحت قدميه بدأ بالهجوم على الطرق الصوفية الذين ارتضوا لأنفسهم ما ارتضته لهم فرنسا، وأصدر جريدة (المنتقد) عام١٩٢٥م. واسمها يدل على ما يهدف إليه الشيخ، وتنبهت الإدارة الفرنسية إلى خطر هذا المصلح الذي يهاجم أعوانها فأصدرت قرارًا بتعطيل الجريدة بعد أن صدر منها ثمانية عشر عددًا، ولكن الشيخ كان قد بدأ مشروعه وسار فيه شوطًا وقد فات الأوان على فرنسا أن تحاصره أو توقف عمله.

في هذه المرحلة كان الشيخ حذرًا في التعامل مع فرنسا ويتكلم بلهجة واقعية ويطالب بمطالب بسيطة، فهو يطالب فرنسا بتطبيق دستورها وألا تكيل بمكيالين. يقول في المقال الافتتاحي في العدد الأول من جريدة المنتقد: «نحن قوم مسلمون جزائريون في نطاق مستعمرات الجمهورية الفرنسوية، فلأننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا، وإن الحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسيء في سياسته، ولا نعني بهذا أننا نخلط بين الدين والسياسة في جميع شئوننا وإنما نعني اعتبار الدين قوامًا لنا وملجأ شرعيًا لسلوكنا، ولأننا جزائريون نعمل للم شعث الأمة وترغيبهم في العلم والعمل المفيد، ولأننا مستعمرة نسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الأمة الفرنسية ونحن ندعو فرنسا إلى ما تقتضيه مبادئها الثلاثة: الحرية، المساواة، الأخوة» (محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر/ ١٦١).

فالخطاب واضح: الجزائر تابعة لفرنسا إداريًا وتمد لها يد الصداقة لتفيد منها في النهضة الاقتصادية والسياسية، ولكن الجزائر مسلمة، وهذه هويتها ويقول تعليقًا على قانون ١٨٦٥: «قضى قانون١٨٦٥ اعتبارنا فرنسيين ولكنه نفذ تنفيذًا جائرًا فيفرض علينا جميع الواجبات دون حقوقها».

المرحلة الثانية:

بعد إقفال جريدة (المنتقد) أصدر الشيخ جريدة (الشهاب) التي احتفظ بها حتى وفاته وكانت أسبوعية ثم تحولت إلى شهرية وكان يصدرها أحيانًا بدروسه في التفسير، وأصدر صحفًا أخرى مثل: الشريعة، السنة المحمدية، الصّراط، ولم تعمر طويلًا؛ فقد أوقفتها الإدارة الفرنسية، وبدأت نبرة الانتقاد للطرق الصوفية، وعملاء فرنسا تعلو وبعد تأسيس جمعية العلماء وحتى لا يحرج الجمعية كان إذا أراد مهاجمة الاستعمار الفرنسي يقول: اتركوا لي هذا الأمر شخصيًا وكان ذلك على صفحات (الشهاب).

من أبرز أعمال هذه المرحلة تأسيس جمعية العلماء الجزائريين التي تكللت بالنجاح وتأتي في قمة عطاء ابن باديس والإبراهيمي وغيرهما من العلماء كالشيخ العقبي والتبسّي. كان ذلك في عام ١٩٣١م بعد مرور قرن على الاحتلال الفرنسي لهذا القطر العربي الإسلامي، وبعد أن ظنت فرنسا أنها ألحقت الجزائر بها سياسيًا وثقافيًا إلى غير رجعة، وكتب الكاردينال (لافيجري) في احتفالات سنة ١٩٣٠: «إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر»، وإذا بها تفاجأ بعمل كبير كان له أكبر الأثر في أجيال قاومت فرنسا وحفظت للجزائر دينها ولغتها.

كتب الإبراهيمي عن تأسيس الجمعية: «دعونا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة صادرة باسم الأمة كلها، وليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس، لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق من الحملات الصادقة على جمودهم، فاستجابوا جميعًا

للدعوة واجتمعوا في يومها المقرر، ودام اجتماعنا في «نادي الترقي» بالجزائر أربعة أيام، وانتخب ابن باديس رئيسًا وجاء دور العمل [١].

كان هذا الاجتماع بعد تمهيد طويل ونتيجة تشاور واتصالات وإقناع وبعد أن نفخ ابن باديس في المسلمين روح الاجتماع والشورى، يقول: «ما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلا بإهمالهم أمر الاجتماع ونظامه، فعلى أهل العلم- وهم المسئولون عن المسلمين بما لهم من إرث النبوة فيهم - أن يقوموا بما أرشدت إليه الآية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢].

وحتى ينجح هذا المشروع الكبير فإن الشيخ أراد أن يسير به بحذر وتؤدة وجنبه الألغام فكان من دستور الجمعية أنه لا يسوغ لها بأي حال من الأحوال أن تخوض في الأمور السياسية، ومن أهدافها: محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر، وكل ما يحرمه الشرع وينكره العقل. وكان هذا ستارًا رقيقًا، أما المضمون والواقع فإن الجمعية خاضت في السياسة بطريقة أخرى عندما أنشأت المدارس العربية في مدن الجزائر وقراها، وعندما نادت بالأخوة الإسلامية وحقوق الإنسان ومناهضة الظلم والاستعباد، نعم، لم يبدأ الشيخ بالعمل السياسي الذي هو عند البعض خطب ومظاهرات لا تجدي مع هذا الاستعمار وإنما خطته محاصرة هذا الاستعمار وتقويض أهدافه شيئًا فشيئًا.

كانت مبادئ الجمعية واضحة: القرآن هو كتاب الإسلام، السنة القولية والفعلية تفسير وبيان للقرآن، التوحيد أساس الدين، وأما إنجازات الجمعية فكثيرة جدًا ومن أهمها: إحياء المفاهيم الإسلامية، وإنشاء المدارس، ونشر العلم وإحياء

(١)محمود قاسم: ابن باديس / ٢٣.

اللغة العربية. وظل الشيخ يعتبرها غير سياسية، فعندما هاجمت جريدة (الطان) الفرنسية جمعية العلماء بأنها تثير الناس ردّ عليهم: «ثم ما شأن جمعية العلماء في هذا الأمر وهي جمعية دينية تهذيبية بحتة، بعيدة كل البعد عن السياسة؟»[١].

وقد فطن أحد الكتاب الفرنسيين لخطورة ابن باديس وجمعيته رغم إعلانه أنها غير سياسية فكتب محذرًا: «هل يمكن أن نقول: إن جمعية العلماء ملية (وطنية جزائرية) نعم، ولكن هذه الملية لا تظهر مباشرة، فالعلماء يحملونها في صدورهم، إن سياستهم تنحصر في المرابطة بحصن الثقافة والدين وهكذا يتدخلون في كل شيء.

المرحلة الثالثة:

بعد قيام الجمعية وتقوية نفوذها بدأت لهجة الشيخ في معارضة فرنسا تزداد حدة، ففي سنة ١٩٣٣م كتب إلى الوالي الفرنسي متهمًا إياه بالتدخل في الشئون الدينية لمسلمي الجزائر على نحو مخالف للدين وللقانون الفرنسي، ثم يوجه الشيخ نداء إلى الأمة أن لا تتبع السياسة العتيقة، سياسة المطالبة والانتظار تجاه دولة تخلف وعودها، ويدعو إلى سياسة المقاومة السلمية مثل مقاطعة الانتخابات وحدد يوما للبدء بحركة المقاومة، وقد ثار المستعمرون الفرنسيون على نداء ابن باديس فكتب يرد عليهم: «لم يسؤني ما علقتم به من عبارات الحقد والتحرش، وأريد أن أحقق لكم أن تحرشكم لا يخيف صغارًا من تلامذتنا فمن باب أولى ألا يكون له أدنى تأثير في كبارنا، ومن المؤسف أنكم لا تدركون تطورات الأمم وتقلبات الأيام»[٢].

في سنة ١٩٣٧ يطلب الشيخ من أهالي قسنطينة عدم المشاركة بالاحتفال المئوي لاحتلال مدينتهم فيمتثلون لأمره جميعًا، لقد انتقل الشيخ إلى مركز القيادة وحاولت فرنسا الالتفاف على هذه المبادرات وهذه اليقظة فأصدرت قانون (بلوم-فيوليت)

(١) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧، ص١٨٦.

(٢) محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس – الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف المصرية، القاهرة، ص٧٣.

الذي فرحت به الأحزاب السياسية لآمالهم في الاندماج مع فرنسا والمساواة في الحقوق السياسية، ولكن فرنسا أخلفت مواعيدها في هذه المرة أيضًا ويكتب الشيخ: «إن فرنسا تعد وتخلف، والجزائر تخدع وتطمع، وأما نحن فقد أخذ اليأس بتلابيب كثير منا، كلا والله لا تسلمنا المماطلة إلى الضجر، وإنما يدفعنا اليأس إلى المغامرة والتضحية، وكَذَب رأي السياسة وساءَ فألها»[١] وهذه العبارة الأخيرة تدل على ما في ذهن الشيخ وما يخطط له من محاربة الاستعمار. ويهاجم دعاة الاندماج مرة ثانية فيقول: «ثم إن هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا، لو أرادت».

وهكذا انتقل ابن باديس في آخر حياته لمرحلة المقاومة السياسية ثم المقاومة بالقوة، ولكنه لم يدرك هذه الأخيرة. لقد بدأ إصلاحه «سهلًا لينًا وانتهى صارما ممتنعًا على نحو لم يفطن له المستعمر أول الأمر. إنه الرجل السهل الممتنع الذي بدأ ينحت في الصخر تحت خرير الماء الهادئ حتى أتى على الصخر وأزاله من طريق الأمة»[٢].

ـ منهجية ابن باديس في تعليم المرأة:

الأسرة هي المدرسة الأولى: يمكن القول أن البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأساسي لتكوين الرجال ومن ثم كانت الأسرة الخلية الأولى في بناء المجتمع، وكانت المرأة العمود الفقري في بناء صرح هذه الأسرة لقيامها بوظيفتها الطبيعية وهي العملية التربوية، تسهر على تربية الأولاد، تعلمهم الفضيلة وتجنبهم الرذيلة، وتنمو على يديها قدراتهم الشعورية والعقلية، وعن طريقها يخطون أولى خطواتهم إلى العالم الخارجي، ويشكلون من مفهومها للحياة مفهومهم البسيط لظواهرها،

(١)الميلي: ابن باديس/ ١٨٠.

(٢) محمود قاسم: ابن باديس/ ٤٩- ٦٤.

ولهذا فإن أثر الأسرة الصالحة عظيم على الأمة ولا تفوز أمة بأسباب الارتقاء إلا إذا كان ذلك قد شمل أسرها، ومن ثم كانت العناية بالأمة تنطلق من العناية بالأسرة ومن خدم الأسرة فقد خدم أمته. مما يبرز أهمية التربية والتعليم في تكوين المرأة، ومن ثم دور المرأة المتعلمة في عملية النهوض بالمجتمع تربويًا وتعليميًا. وكان ابن باديس انطلاقًا من هذه القناعات قد ركز في مشروعه التربوي على تربية المرأة وتعليمها، لتكون بذلك قادرة على النهوض بدورها الأسري والاجتماعي، وكان عمله في هذا الإطار مزدوجًا عمليًا ونظريًا.

١ - **إسهاماته في الميدان العملي**: وقد اضطلع بهذه المهمة في الميدان بتخصيصه درسًا يوم الجمعة من كل أسبوع يلتقي فيه بالنساء اقتداءً بالرسول الأعظم (محمد عليه الصلاة والسلام)، يعظهن ويعلمهن، وكان قد أقبل على هذه الخطوة بجرأة كبيرة، فقد استشار بعض أصحابه في الموضوع فأشاروا عليه بخطورته، ومع ذلك أقدم عليه متوكلًا على الله، مستعينًا به، وكان لذلك أثره المبارك على المجتمع، كما سعى في هذا الإطار إلى تأسيس قسم في مدرسة التربية والتعليم التي كان يرأسها وأسقط على البنات دون البنين الرسوم المدرسية، تشجيعًا لهن على الالتحاق بالمدرسة «لتكون منهن بإذن الله المرأة المسلمة المتعلمة».

وقد تطلع في هذا المجال إلى أبعد من هذا، ففكر في إرسال بعثة طلابية من البنات إلى سورية، وراسل في هذا الشأن في أواخر الثلاثينات مدرسة (دوحة الأدب للبنات) بالشام يعرض على إدارتها رغبته في إرسال بعثة طلابية من البنات للتعليم بها، واتصل بأوليائهن لهذا الغرض واستطاع أن يقنعهم بالفكرة وهم بإنجازها لولا اندلاع الحرب العالمية الثانية التي حالت بينه وبين تنفيذ هذه الأمنية.

وتمضي الأيام ويثور الشعب الجزائري ويجاهد ويضحي وينتصر، وتكون سورية الشقيقة البلد العربي الوحيد، الذي استقبل في مدارسه وجامعاته، أول بعثة

طلابية من البنات الجزائريات تذهب إلى الشرق في تاريخ الجزائر، وتتحقق بذلك – بمشيئة الله – أمنية الإمام الفقيد. ولعل هذه واحدة من إكرام الله عباده الصالحين المصلحين، بتحقيق بعض أمانيهم في خدمة الصالح العام بعد رحيلهم من عالم الشهادة إلى عالم الغيب.

٢ – **إسهاماته في الحقل النظري**: قام الشيخ نظريًا بدعوته العامة إلى تربية المرأة وتعليمها، كما خصص لذلك في مجلته (الشهاب) ركنًا بعنوان (رجال السلف ونساؤه) أوقفه على الترجمة لبعض الصحابة والتابعين، تحدث فيه عن بعض الصالحات من نساء السلف الصالح، وأوضح ما أتاحت لهن المعرفة من القيام بدورهن التربوي الأسري يقدم عن طريقهن النموذج الأمثل للقدوة الصالحة، وأحسب أن العنوان بمزاوجته بين النساء والرجال يحتوي على دلالة موحية لما يهدف إليه الكاتب من وراء هذه السلسلة من التراجم والسير التي نشرها تحت هذا العنوان. وقد زاوج فيه بين الرجال والنساء، من خيرة الرجال والنساء، إنهم أعلام من الصحابة والتابعين، وبذلك كانوا نماذج أسوة واقتداء. وفي هذه الدلالة الدينية من وجوه الإيحاء ما يصور ما يجب أن تكون عليه صور هذه المشاركة المزاوجة بين الجنسين، مما قد يزيد في عملية الإقناع بالفكرة التي يدعو إليها الكاتب بشأن تربية المرأة وتعليمها.

دعوة شجاعة في مجتمع محافظ: ويظهر أن الكاتب كان يشعر بصعوبة هذه المهمة التي يضطلع بالدعوة إليها في مجتمع محافظ، لذلك عمد للاستعانة في دعوته هذه ببعض النصوص القرآنية والأحاديث الدينية، كما استعان ببعض البراهين المنطقية والدلائل التاريخية لحمل الناس على الاقتناع بأفكاره والاستجابة لدعوته، وقد اتصل شخصيًا بأولياء البنات في هذا الشأن وحاول إقناعهم بإرسال بناتهم إلى (مدرسة التربية والتعليم) وقد نجح بعض النجاح، فالتحق بالمدرسة كوكبة من

البنات، كما التحق بمدرسة (دار الحديث) بتلمسان، و(مدرسة الشبيبة الإسلامية الجزائرية) بالعاصمة مثل ذلك.

مشروعية تعليم المرأة: ويستدل الإمام من التاريخ الإسلامي ومن سيرة الرسول ﷺ على مشروعية تعليم المرأة، فقد كان بعض نساء المسلمين في صدر الإسلام يُحسنَّ الكتابة، ومن بعضهن، بعض أمهات المؤمنين: (عائشة وحفصة) عليهما رضوان الله، ومنهن (الشفاء القرشية) -رضي الله عنها-، وقد أمرها الرسول عليه الصلاة والسلام أن تعلم (حفصة) رقية النملة كما علمتها الكتابة «لا تعلمين هذه- حفصة- رقية النملة كما علمتها الكتابة».

ويقف في هذا الباب عند الأثر الشائع في بعض الأوساط والذي يشير إلى منع المرأة من الكتابة وهذا نصه «لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن الغزل وسورة النور» فيؤكد على ضعفه ويحذر منه وكان (مصطفى بن الخوج) قد وقف أيضًا هذا الموقف من هذا الحديث، كما وقف منه كذلك بعض الدارسين.

ويود الشيخ أن يزيد موضوع تعليم المرأة تأكيدًا فيستدل على ذلك بالحديث الشريف الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه «قالت النساء للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يومًا من نفسك. فوعدهن يومًا لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن: ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابًا من النار، فقالت امرأة: واثنتين فقال: واثنتين» رواه البخاري.

وانطلاقا من هذا الإيمان واقتداء بسيرة معلم الإنسانية الأول محمد عليه الصلاة والسلام، أولى الكاتب عناية كبيرة بتعليم المرأة، لاعتقاده أن التخلف الملاحظ في رجالنا إنما مرده إلى «جهل الأمهات وقلة تدينهن». وذلك بسبب «عدم التربية الإسلامية في البيوت»، وليس هناك من علاج ناجع أحسن من «أن نُكَوِّن أمهات دينيات ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليمًا دينيًا وتربيتهن تربية إسلامية».

تعليم المرأة على أساس دينها: ويظل الإمام يلح على هذه الفكرة، فيؤكد مرة أخرى على تعليم المرأة تعليما يقوم على أساس دينها وقوميتها «علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا وقوميتنا» وكان يركز في دعوته هذه إلى تعليم المرأة على ناحيتين اثنتين: الناحية الدينية والناحية الاجتماعية بما يحفظ عليها شخصيتها في إطار طبيعتها النسوية ويساعدها على القيام بوظيفتها الاجتماعية الإنسانية، وهي حسن رعاية الأسرة وتربية الأولاد تربية صالحة لتكوِّن منهم رجالًا صالحين «فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها وتربيتها على الأخلاق النسوية التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل ونصف امرأة، فالتي تلد لنا رجلًا يطير خير من التي تطير بنفسها». وكان أعلام الإصلاح يشاركونه الرأي في توجهه، هذه الوجهة السليمة في تعليم البنت تعليمًا دينيًا.

ويرى الشيخ أن هذا التعليم الديني للبنت بما يقوم عليه من تعليم العربية والإسلام، عظيم الأثر على الأمة لأن المرأة النابتة في تربة هذا التعليم تنشأ على حب دينها وأمتها، فينتقل منها ذلك إلى الناشئة فيشب عناصرها على ذلك الحب وذلك الولاء للدين وللوطن وللأمة، فلا ينكرون أصلهم ولا يتنكرون لقومهم، فعلينا أن نربي المرأة على ذلك «لتلد أولادًا منا ولنا، يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية، ولا ينكرون أصلهم وإن أنكرهم العالم بأسره، ولا يتنكرون لأمتهم ولو تنكر لهم الناس أجمعون».

ويحذر الكاتب بالمقابل من مخاطر التعليم الأجنبي، تلك التي لا تتوقف عواقبها الوخيمة على المرأة فحسب، وإنما تتجاوزها إلى الذرية وإلى المجتمع. وذلك بما تنقله المعلمة بذلك التعليم إلى عقول ونفوس الناشئة من سموم المسخ والنسخ تلك التي سرعان ما تتحول إلى نكران وتنكر للذات وللملة وللأرومة.

ويبلغ الأمر بالكاتب أمام هذا المصير الخطير، أن أصبح يفضل أن تبقى البنت

جاهلة على أن تتعلم ذلك النوع من التعليم الذي حاول أن يمسخها ويؤدي بالنشء إلى تلك النهاية المؤسفة وذلك العقوق النكير. «فالجاهلة التي تلد أبناء للأمة يعرفونها مثل أمهاتنا – عليهن الرحمة – خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها».

ابن باديس والتربية:

لقد اتخذ ابن باديس التربية وسيلة للإصلاح الثقافي والاجتماعي والسياسي وهو يرى أن الإصلاح الاجتماعي يقوم على أساس أن الأخلاق تنبع من الداخل، وأن الوسيلة هي تطهير القلوب، وتغيير النفوس، والعناية الشرعية كلها متوجهة إلى إصلاح النفوس يستدل على ذلك بقوله تعالى «قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» وهو يرى إن صلاح المسلمين بصلاح علمائهم، لأنهم بمثابة القلب للأمة، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم.

وأهداف التربية عند «ابن باديس» تشتق من المجتمع، أي من فلسفته ونظرته للحياة، وهدف التربية يقوم على أسس دينية وأخلاقية أو جمالية ذوقية أو اجتماعية أو مادية.

ومن أهداف التربية عنده كمال الحياة الفردية والاجتماعية، وهو هدف فردى – اجتماعي، وهو يرقى إلى بناء الشخصية البشرية في شمولها وكليتها ووحدتها، من حيث طرق الفكر والشعور والعمل.

ومن أهدافه العليا في التربية خدمة الإنسانية، ولأن فكر ابن باديس يمتاز بالواقعية يرى أن تفعيل هذه الخدمة يكون عن طريق الإسلام أولا، وبخدمة الوطن ثانيا، وغرض التربية الوطنية عنده هو المحافظة على الشخصية الإسلامية العربية بكل مقوماتها.

ومن وجوه النقد التي يوجهها إلى طرق التدريس في المغرب الإسلامي الاقتصار على دراسة الفروع الفقهية دون الرجوع إلى الأصول ودون الاعتماد على

الاستدلال والتعليل والقياس، ويعتبر هذا بعدًا عن القرآن وهجرًا له.

ومما ذكره «ابن باديس» وذَكَّر به أهمية تعليم المرأة ودور العلماء في ذلك، ثم مواقفه إزاء مقاومة الاستعمار للتعليم، حيث التركيز على تعليم الدين والعربية لترسيخ مبدأ الهوية العربية والإسلامية.

وقد عرض العديد من القضايا الإسلامية والمسائل الشرعية في إطار منهجه في تفسير القرآن الكريم، فعلى سبيل المثال:

شعيرة التذكير، حيث عرف حقيقته، وحاجة العباد إليه، وبين كون النبي ﷺ، قد سار على هدى وسنة إخوانه من الأنبياء والمرسلين، في القيام بتذكير العباد متمثلًا أمر ربه - تعالى - له بقوله ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١،٢٢].

وفي مجال الذكر، فقد قام بتعريفه وحقيقته ومحله، وإطلاقاته، وأقسامه القلبي بالتفكير، بالاعتقاد بالاستحضار، اللساني بالثناء والدعاء، بالإرشاد والتعليم، وذكر الجوارح بالعمل، بالانكفاف، ثم تناوله للسيرة النبوية في الذكر، وكيفية السلوك عليها، وحذر من الغفلة عن هذه الشعيرة كما لها قيمة في تقوية الصلة بالله ﷻ.

وفي مجال الهداية بَيَّن نوعها، وبماذا تكون الهداية، ولمن تكون الهداية، وإلى ماذا تكون الهداية، وبين ما يعود على المرء إذا ما أنعم الله تعالى على عبده في الهداية، والإخراج من حالات الحيرة إلى حالة الاطمئنان، وختم حديثه عن الهداية بتأكيده على أن الإسلام هو السبيل الجامع العام، وأن الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله لازم دائم.

وحول سبيل السعادة والنجاة: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ

﴿ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] وبين أن لا نجاة من المهالك ولا وصول للمسلمين إلى السعادة في دنياهم وأخراهم ومغفرة خالقهم ورضوانه، إلا باقتفاء آثار النبي ﷺ والسير في سبيله.

وتحقيق السعادة يتم بالدعوة إلى الله تعالى، وعلى كل مسلم أن يكون داعيًا إلى الله، وضرورة التفرقة بين الصادقين والكاذبين.

وقام بتفسير آية الليل والنهار حيث يؤكد على أن الله تعالى في سور القرآن، وعالم الأكوان، آيات بينات دالة على وجودة، وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته، ونعم سابغات موجبة لحمده وشكره وعبادته.

ثم تناول إرادة الدنيا وإرادة الآخرة ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا [الإسراء: ١٨، ١٩].

وتناول أصول الهداية في ثماني عشرة آية، وعقيدة التوحيد: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

وهذا هو أساس الدين كله، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة، ولا تتقبل الأعمال إلابه، وكانت أفضل كلمة قالها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي كلمة «لا إله إلا الله» وهى كلمته الصريحة فيه.

وحول «بر الوالدين»: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فسر الآيات الخاصة ببر الوالدين، والأثر الاجتماعي السلوكي على استقرار المجتمع في ظل التماسك الأسري وصلة الرحمة بالوالدين.

وتناول الآيات الخاصة بصلاح النفوس وإصلاحها، ثم إيتاء الحقوق لأربابها حيث تناول حقوق القريب ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾.

تناول حق المسكين وابن السبيل، والإنفاق في غير وجه شرعي: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء:٢٦]، وفسر إخوان الشياطين.

وتناول العدل في الإنفاق، وقد اعتبر تفاوت الأرزاق من حكمة الخلاق.

وفسر الآيات الخاصة بحفظ النسل وحفظ الفرج وعدم العدوان، وذلك من أجل حفظ النفوس، ثم حفظ الأموال باحترام الملكية: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء:٣٤].

العلم والأخلاق:

والعلم الصحيح والخلق المتين هما الأصلان اللذان ينبغي عليهما كمال الإنسان، ووقف عند الآيات الخاصة بمكانة العلم والعلماء في الإسلام والوسائل التي تحقق ذلك، ويرى «ابن باديس» أن العلم هو وحده الإمام المتبع في الحياة والأقوال والأفعال والاعتقادات.

وفيما يتعلق بالأخلاق الإسلامية، فقد رصد الآيات الدالة على الفضائل الخلقية وأهميتها في الإسلام ودورها في حفظ المجتمع وتماسكه.

ونحن بدورنا نؤكد على ما يميز الأخلاق الإسلامية في كونها تعتمد على الدين والمرجعية الدينية للأخلاق الإسلامية، من أهم ما يميز الأخلاق الإسلامية في مقابل الأخلاق الفلسفية الغربية ذات المرجعية الغربية، والتي تسيطر عليها النسبية ومن ثم التغير والتبدل مما يضيف من أثرها على النفوس في المجتمعات الغربية.

وفي مجال حقوق الإنسان التي تتشرف بها المؤسسات الدولية وقف «ابن باديس» عند تكريم الإسلام للإنسان، قبل أن يعرف الغرب مصطلح «حقوق

الإنسان» بمئات السنين وفي المجلد الثاني مؤلف من جزأين اثنين، نشرت فيهما المقالات الاجتماعية والتربوية والأخلاقية والدينية والسياسية التي كتبها الأستاذ، ونشرت في الصحف التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد كان لتلك المقالات والبيانات الأثر الفعال في نهضة الجزائر وفي تنوير الأذهان والتنبيه إلى الشأن العام.

ومن خلال رصدنا لبعض القضايا في هذا الجزء، نذكر تفسيره **لقضية النبوة**، حيث شرح لملك النبوة، كمجمع للحق والخير ومظهر الجمال والقوة، وقد فرق «ابن باديس» بين النبوة والملك، وتناول الآيات والآثار التي تناولت موضوع النبوة بالتفسير.

ثم وقف عند قضية «الوحي والحياة» بعد الموت، والفرار إلى الله، وخلاصة تفسير المعوذتين، وتفسير آيات الزينة والستر، وعلاقة الراعي بالرعية، واتحاد المؤمنين وتعاونهم، وأهمية التمسك بسنة الرسول ﷺ، وفسر ما يتعلق بنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن أهم ما فسره «ابن باديس» حرص النبي ﷺ على تعلم المسلمين للغات غيرهم لحماية الدعوة الإسلامية.

وتناول أهمية مجالس العلم وضرورة الإقبال عليها.

ثم تناول في عجالة العديد من الآثار والأخبار التي يضيق المقال برصدها وذكرها كالترغيب في الذكر وحكم طلب العلم وتعلم القرآن وغير ذلك من الآثار والأخبار في هذا الإطار.

ثم يتناول «ابن باديس» **قضية الإصلاح والثورة ضد البدع**، يتناول فيه بالتحليل شخصية الإنسان الذي يجهل ما يتحدث عنه، ومن يتكلم بما لا يعلم.

وتحدث عن «**جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**» من خلال تأسيسها وما واجهته من صعوبات وعقوبات، وسعيه المستمر في إصلاحها وتجاوز مشكلاتها،

حيث بيَّن ماذا كان يدبر للاستيلاء على الجمعية، وتحدث عن أوضاع الأمة الإسلامية وما بلغته من سوء في الخلق وفساد في العقيدة وجمود في الفكر وقعود عن العمل وانحلال في الوحدة وتعاكس في الوجهة وافتراق في السير، حتى خارت النفوس وفترت العزائم وماتت الهمم، واستولى القنوت واليأس على معظم أفراد الأمة، وتجددت التحديات والمصائب التي تحيط بنا.

ثم يؤكد على أن كل ذلك لم يؤثر على كل المسلمين، بل بقيت مجموعة من العقول والنفوس لم تضعف ولم تلين وقاومت مسيرة الأمة من خلال التمسك بالشرع القويم.

وقارن بين التصوف السني والتصوف الطرقي، حيث أبرز سلبيات الطرق الصوفية وأخطارها، وكذلك نقد غلو الصوفية في شطحاتهم.

ثم تناول واقع التربية والتعليم في الجزائر والجهود التي بذلتها جمعية العلماء المسلمين بالجزائر في تأسيس المدارس والمؤسسات التعليمية وتطويرها والحفاظ عليها، وبين دور المساجد في الحفاظ على هوية التربية والتعليم الإسلامية في وجه التحديات الاستعمارية.

ومن آثاره التي وقف عندها قسم السياسة من حيث المبادئ والغايات والشعارات، وتناول مطالب الجزائر من فرنسا لتأكيد حقوق الجزائر، وتحدث عن قضايا الوحدة العربية والمشكلة الفلسطينية.

وفي الجزء الأخير من آثار «ابن باديس» يتناول المقالات التالية: التاريخ، العرب في القرآن، التراجم، القصص الديني والتاريخي، الرحلات، تطور جريدة الشهاب، الصلاة على النبي، الفقه والفتاوى.

«ابن باديس ومنهجه الفكري والإصلاحي»:

إن صفات ابن باديس تندرج من التواضع والرفق بالناس والتسامح معهم

والتفاؤل لهم والاعتماد على الخالق، وإلى الصرامة في الحق والشجاعة التي لا تقف عند حد، هذا بالإضافة إلى قدرة منهجية وفكرية ودعوية مكنته من تصحيح مسار المجتمع الجزائري المسلم نحو الحرية والاستقلال في ظل التمسك بالهوية الإسلامية ولم يقف تأثير «ابن باديس» على المجتمع الجزائري، بل انتشرت جهوده الفكرية والإصلاحية وسارت في مسار المجتمع الإسلامي المعاصر، حتى غدت آثار «ابن باديس» علامة فارقة في إطار الجهود التي بذلت على مستوى الأمة الإسلامية في واقعنا الحديث والمعاصر.

وقد فطن «ابن باديس» أن تدهور أحوال المسلمين في جميع مظاهر الحياة والعمران أساسه الاستبداد، ويرجع ذلك إلى ضعف الروح الدينية لدى الجميع ملوكًا ورعايا، وهنا يركز على الدور الحيوي الذي يجب أن يضطلع به علماء الدين في حماية مسيرة الأمة.

ولم يغفل «ابن باديس» الدور الاستعماري في تخريب الأمة حيث يرى أن هذا الحجم من الفساد المستشري والذي عمَّ بلاد المسلمين بسبب استبداد ملوكهم، ليس شيئًا يقارن بالفساد الذي ينخر في كيان الأمة المسلمة إذا ولي أمرها من لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء.

ولم يكن «ابن باديس» مصلحًا فحسب، بل كان مجاهدًا سياسيًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، فلقد وضع للمجتمع الجزائري دستور المستقبل، عندما برهن على عدم مشروعية الحكم الفرنسي في الجزائر.

ويثني الشيخ «البشير الإبراهيمي» على جهود «ابن باديس» في فهم القرآن الكريم وأثر ذلك على مسيرة المجتمع الإسلامي، حيث يرى أن الشيخ «محمد عبده» قد قام بدور عظيم في تيسير فهم القرآن الكريم، وانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي إلى منشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر، بل الشمال الأفريقي، «عبد الحميد بن باديس».